وقع كتابه «في حضرة الغياب» بعمان وسط حضور كثيف

درويش: لا تندم على حرب أنضجتك كما يُنْضجُ آبُ أكوازَ الرّمان على منحدرات الجبال

محمود درويش

عمان ـ «القدس العربي»:

كان حضور الشاعر العربي محمود درويش بهيا وخاصا وهو يلتقي جمهوره وعشاق شعره في مسرح البلد وسط عمان، وقد ازدحم المكان بطابقيه والشارع أيضا بالحضور الذين اصطفوا ليشتروا نسخا من كتبه السابقة، وكتابه الجديد الصادر عن دار رياض الريس في بيروت «في حضرة الغياب» وقد حضر أمين عام وزارة الثقافة الأردنية الشاعر جريس سماوي ليقدم درويش بكلمات تليق بتجربته، فيما رعى الاحتفال نائب امين عمان عامر البشير، وبعدها قرأ درويش من كتابه مجموعة من النصوص، وقد سبق ان وقع درويش كتابه «كزهر اللوز او أبعد» في المسرح نفسه صيف 2005 وسط حضور كبير أيضا.

وقال سماوي في تقديمه: «سطرا سطرا انثرك امامي» هكذا ينثر محمود درويش كفلاح ذكي حنطة الكلام في حقله الابهى والاشف. وكصوفي خرج من الحضرة كي يتنفس قليلا خارج الايقاع يقيم حلقته الخاصة به في الهنيهة المتاحة له خارج النص، وفي غياب الحضرة، كأني بالصوفي لا يصل الى النشوة ابدا ويبقى الغياب سيد الحضرة وسيد اللحظة وسيد المكان والزمان.

هل هي سيرة الشاعر ام سيرة الشعر؟ وأظن انها سيرة الشعر.. فما الذي يفعله الشاعر بنا؟ يجرنا مسلوبين الى غواياته كل مرة. لكن هذا النص ليس غواية جديدة، وليس اشتغالا جديدا في الشكل او التجريب او اللغة انه شيء اخر تماما شيء اربكني واحزنني واضاءني وانا اقرأ واتتبع واتهجى المسارب والطرقات وتعرجات الاحلام التي يقودني الشاعر اليها.

«في حضرة الغياب» هو عنوان هذا النص الابهى من الكتابة، اقول الابهى لانه يثير فينا هذا السؤال الملح ويثير فينا امتاع الدهشة والغرابة والفرادة والجدة. هو ليس شعرا لكنه الشاعرية الاعذب، وهو ليس نثرا محضا لكنه النثر الاشف، وهو ليس سيرة حياة الشاعر، لكنه سيرة الشعر، وهو ليس قصة لكنه القص الامتع وهو ليس حوارا دراميا لكنه غني بالحوار، حوار بين ذات الشاعر وذات الانسان، حوار بين شخصيات تتداعى في الخيلة وتنداح على مساحة النص وجسد الكلام، حوار في عدة مستويات تبدأ بين اثنين هما الناثر والمنثور الموصي، والموجي، المستأذن، والمستأذن.

محمود درويش ما زال في النص متسع للمغامرة على ظهر حصان طائش بلا مسرج.. ما زال في النص حضور في حضرة الغياب، انت الحاضر بفتنة الشعر وسحر الكائن البري، وخفة المطالع وهي تنساب كالخدر الجميل الى دواخلنا...» .

ورد درويش على كلمات سماوي بالقول «ابهجتني واحرجتني» ثم قرأ مقاطع من نصوصه أمام الجمهور الحاشد متحدثا فيها عن تفاصيل قريته وذكرياته وأسفاره والمدن التي مر فيها، ضمن نثر يمتلىء بالشعرية العالية والتحليق والغنى في المفردات والصور والخيال ،فشاعر كبير مثل درويش يبهج بنثره مثلما يفعل في شعره ،وتجد كلماته غالبا وقعا كبيرا في قلب المتلقي.

هنا مقاطع متفرقة من نصوص الكتاب:

«كما أوصيتني، أقف الآن باسمك
كي أشكر مشيعيك الى هذا السفر الأخير
وادعوهم الى اختصار الوداع
والانصراف الى عشاء احتفالي يليق بذكراك
فلتأذن لي بأن أراك
وقد خرجت مني وخرجت منك،
سالماً كالنثر المصفى على حجر
يخضرّ أو يصفرّ في غيابك. ولتأذن
لي بأن ألك
واسمك كما يلم السابلة ما نسي
قاطفو الزيتون من حبات خبأها
الحصى
ولنذهبن معا في مسارين: أنت الى
حياة ثانية وعدتك بها اللغة
في قارئ قد ينجو من سقوط نيزك
على الارض
وأنا الى موعد ارجأته اكثر من مرة
مع موت
وعدته بكأس نبيذ أحمر في احدى
القصائد».

لكنك مُسَجّى أمامي، أعني في كلامي الخالي من عثور الاستعارات على مصادرها، وعلى رابط خفيٍّ بين أرضٍ متديِّنة، وسماء وثنيّة. من هناك الى هُناك يرحّل الغيم برفقة قمر لم يحرمنا افتضاحُ سرّه الصخريّ من تذكّر حُبٍّ سابق. ولم يمنعنا جفافُ القلب من مداواة اوجاع المفاصل بذكرى التمدّد على العشب، تماماً كما انت مسجّى امامي في كلامي الذي لن يخذله غدٌ شخصيٌّ كفّ عن الخداع، لا لأنه تأدّب وتهذّب، بل لأنه يحتضر الآن ويصير الى خبر، لا عَدُوّ له ولا صديق... خبر عن مسافرين اثنين، أنت وأنا، لم يفترقا في مرآة او طريق... لم يفترقا الا لساعات يتأكّدان خلالها من سطوة الأنثى على الذكر.

حيث يرى المرء نفسه في حرائق البرق، كما هي، معافاةً مُصفّاة من شوائب التشبيه بما ليس موتاً يُحْيي... وحياةً تحيا على حصّة العاشق من سخاء المودة بين المخلوق والخالق. فلا جنة معلنة بالحواس وبالحدس سوى العاشقة، ولا جحيم الأخيبة العاشق.

فلتأذن لي، اذاً، ونحن نفترق على هذا البرزخ، بأن أفسخ العَقد المبرم بين عبث وعبث، فلا نعلم مَن انتصر منا ومن انكسر، أنا أم أنت أم الموت، لأننا لم نعترف من قبل، لننتصر، بأن العدوّ أذكى منا وأدهى، فلا شيء يغوي الهزيمة اكثر من مجافاة هذا الاعتراف، يا صاحبي المُتْرَفَ بالأوصاف النقيضة، المُسْرِفَ في البحث عن عبث لا بُدّ منه لتدريب النفس على التسامح، ولتحظى بنعمة التأمّل في ماء يضحك في الغمازات، ويطيرُ فراشات فراشات تخلق الشعر من كل شيء حيّ. فالخفّة، كالندى، قاهرةُ المعدن، وعذراء الزمن، هي التي تدرّب الوحش على النفخ في النايات/

فلا تصالح شيئاً الا لهذا السببُ المبهم، ولا تندم على حرب أنضجتك كما يُنْضجُ آبُ أكوازَ الرّمان على منحدرات الجبال المنهوبة، فلا جهنم أخرى في انتظارك. ما كان لك صار عليك/ وعليك ان تدافع عن حروف اسمك المفكّكة، كما تدافع القطّة عن جرائها. وعليك ما عليك: ان تدافع عن حق النافذة في النظر الى العابرين، فلا تسخر من نفسك ان كنت عاجزا عن البرهان، الهواء هو الهواء ولا يحتاج الى وثيقة دم. ولا تندم... لا تندم على ما فاتك، حين غفوت، من تدوين لاسماء الغزاة في كتاب الرمل، النمل يروي والمطر يمحو، وحين تصحو لا تندم لانك كنت تحلم، ولم تسأل احدا: هل انت من القراصنة؟ لكنّ احدا ما سيسألك: هل انت من القراصنة؟ فكيف تزوّد البديهة بالوثائق والبنادق، وفيها ما يكفيها من محاريث خشبية، وجرار من فخار، وفيها زيت يضيء وان لم تمسسه نار، وقرآن، وجدائل من فلفل وبامية، وحصان لا يحارب/

فلا تعاتب اسلافك على ما اورثوك من براءة النظر الى التلال بلا استعداد لتلقّي الوحي من سماء خفيضة، بل لعدّ النجوم على اصابع يديك العشر. فأنّى لك ان تثبت البديهة بالبرهان، والبرهان متعطش لنهب البديهة تعطش القرصان الى سفينة ضالة؟ البديهة عزلاء كظبي مطعون بالامان مثلك مثلك، في هذا الحقل المفتوح لعلماء الآثار المسلحين الذين لم يكفّوا عن استجوابك: مَن أنت؟ فتحسست اعضاءك كلها، وقلتَ: أنا أنا. قالوا ما البرهان؟ فقلت: أنا البرهان. فقالوا: هذا لا يكفي، نحتاج الى نقصان. فقلت: أنا الكمال والنقصان. فقالوا: قل انك حجرٌ كي ننهي اعمال التنقيب، فقلت لهم: ليت الفتى حجر، فلم يفهموك واخرجوك من الحقل. أما ظلّك، فلم يتبعك ولم يخدعك، فقد تسمّر هناك وتحجر، ثم اخضر كنبتة سمسم خضراء في النهار، زرقاء في الليل. ثم نما وسما كصفصافة في النهار خضراءُ، وفي الليل زرقاء/

مهما نأيتَ ستدنو/ ومهما قُتلت ستحيا/ فلا تظنّ أنك ميت هناك/ وانك حيّ هنا/ فلا شيء يثبت هذا وذلك الا المجاز/ المجاز الذي دربّ الكائنات على لعبة الكلمات/ المجاز الذي يجعل الظلّ جغرافيا/ والمجاز الذي سيلمك واسمك/ فاصعد وقومك/ أعلى وابعد مما يعد تراث الاساطير لي ولك/ اكتب بنفسك تاريخ قلبك/ منذ اصابة آدمَ بالحب/ حتى قيامة شعبك/ واكتب بنفسك تاريخ جنسك/ منذ اقتبست من البحر ايقاعه ونظام التنفس/ حتى رجوعك حياً الي/ فأنت مسجّى أمامي/ كقافية غير كافية لاندفاع كلامي اليك/ أنا المرثيّ والراثي/ فكُنّي كي أكون/ قُم لأحملك/ اقترب مني لأعرفك/ ابتعد عني لأعرفك!

ذاكرة الشعر: حسين مردان و«قصيدة النثر»

سامي مهدي*

■ ربما كان الشاعر حسين مردان (1927 ـ 1972) خير ممثل للروح التي حلت في الشعراء العراقيين الشباب الذين ظهروا في أواخر أربعينيات القرن العشرين، وأصبحوا رواد ما عرف في ما بعد باسم "حركة الشعر الحر"، فقد كان جذوة هذه الروح في قلقه وتمرده واندفاعه وخروجه على التقاليد وانهماكه في الكتابة والتجريب. وإذا كانوا هم قد عبروا عن قلقهم وتمردهم بالخروج المبكر على نظام النظم التقليدي في الشعر العربي، فإنه عبر عن ذلك بسلوكه ونمط حياته وجرأته في اقتحام المجهول، قبل أن يعبر عنه في موقفه الشعري. فقد كان بوهيمياً قبل أن يُعرف معنى "البوهيمية"، وكان "هيبياً" قبل أن يظهر "الهيبيون" على المسرح، بل كان "رامبو" حقبته، قبل أن يسمع باسمه، حتى وصف بالتشرد والصعلكة، وظن أهل مدينته "بعقوبة" أنه "نصف مخبول" مثلما ظن أهل مدينة "شارلفيل" برامبو نفسه .(1)

وكما كانت "ناتالي" تضايق ابنها "رامبو" وتطالبه بالاستقامة والانتظام في الدراسة، كذلك كانت "أم حسين"، حتى قرر الفرار من وجهها والرحيل إلى بغداد، كما فر رامبو من أمه ورحل إلى باريس. كان ذلك عام 1947، وعمره لم يكن يزيد عن عشرين عاماً. غير أنه لم يرحل بناء على دعوة تلقاها من "فرلين" آخر، بل رحل معتمداً على نفسه، ومعتداً بذاته، وثقة بقدرته على اقتحام المجهول من دون معين. وقد كانت جيوبه، عند الرحيل، خاوية إلا من دراهم قليلة ما لبثت أن تبخرت بعد يومين أو ثلاثة من حلوله في بغداد. فكان عليه أن يجوع ويتشرد ويشقى. فلم يكن يتناول من الطعام سوى وجبة فقيرة واحدة في اليوم. ولم يكن له بيت أو مكان محدد يؤويه، وكان إذا جنّ الليل يجوب شوارع المدينة حتى مطلع الفجر، حتى إذا هدّه النعاس والتعب، عمد إلى أقرب بستان ليحصل فيه على "غفوة صغيرة".

كل شيء في سيرة حسين مردان يذكر برامبو، ولكنه رامبو من طراز خاص، طراز عقلاني! وربما كانت هذه العقلانية هي التي فرضت نفسها عليه ووجد نفسه مرغماً على الرضوخ لها، في الحدود الدنيا في الأقل. فلا شيء يُعطى مجاناً لكل قادم إلى بغداد. ولا أحد، في بغداد، يتعهد غريباً فينفق عليه أكثر من يوم أو يومين. وكان على حسين أن يأكل، ولو وجبة واحدة في اليوم، وأن ينْوي في مكان، و يجلس في مقهى، أو يدلف إلى حان، وكل هذا يلزمه بأن يدفع، وإلا حدث له ما لا تحمد عقباه. ولذا كان على حسين أن يعمل ليحصل على قوته اليومي وضرورات معيشته، فزاول أعمالاً متواضعة شتى، منها عامل بناء بسيط ينقل الطابوق (الطوب) على ظهره. ولم يكن هذا العمل، أو غيره، يميسور له دائماً، فظل الجوع وقلة النوم يلازمانه، حتى وجد من فتح له طريق العمل في الصحافة، فعمل "مصححاً" ثم "مخبراً محلياً" ثم "محرراً"، وعندئذ نال قدراً يسيراً من الاستقرار في صحافة هي نفسها غير مستقرة، بسبب ما كانت تتعرض له من قرارات المصادرة والتعطيل المؤقت والغلق النهائي.

كان شارع الرشيد أول ما اجتذب حسين مردان من بغداد. ولم يكن هذا الشارع خريباً قذراً كما هو اليوم، بل كان "شارع الفساتين الملونة والزجاج". كان يعج بالنساء الجميلات السافرات المتأنقات من كل دين، مسلمات ومسيحيات ويهوديات، عراقيات وعربيات وأجنبيات. وكانت المخازن تتلألأ بأضوائها ومعروضاتها الحديثة المغرية. أما المقاهي والملاهي ودور السينما فهي كثيرة. فهو شارع للنهار وللليل. وثمة في أقصى طرفه الغربي تقع منطقة الميدان. وما أدراك ما منطقة الميدان: تزخر بالعاطلين عن العمل والشحاذين والمشعوذين والسكارى وأنصاف السكارى، ويكثر في أسواقها وأزقتها الفرعية الباعة المتجولون والنشالون وباعة الحشيش والأفيون. وفيها، عدا ذلك، مبغى عام يرتاده سواد الناس في الليل والنهار. وفي هذه المنطقة، في هذا الشارع، وجد حسين كل ما كان، يومئذ، يبتغيه.

ولكن المقاهي التي يرتادها الأدباء كانت هدفه الأول هناك. وفيها تعرف على الشعراء والأدباء والصحفيين الشباب. فالتقى ببدر شاكر السياب، وعبد الوهاب البياتي، و بلند الحيدري، وصفاء الحيدري، ورشيد ياسين، وكاظم جواد، وعبد الرزاق عبد الواحد، وأكرم الوتري، وعبد المجيد الونداوي، وغائب طعمة فرمان، وغيرهم، وشاركهم مجالسهم ومناقشاتهم، غير أنه احتفظ بمسافة ذهنية تفصل بينه وبينهم. فهو مختلف عنهم في كل شيء، في نمط حياته، وتفاصيل سلوكه وعاداته، ونوع أحلامه، وفي آرائه في الشعر، وفي الوجود، وفي المرأة والحب، وفي كل شيء.

كان الشعراء منهم قد بدأوا تواً كتابة الشعر الحر، وما زالوا شغوفين بمحاولاتهم الأولى ومبهورين، يتجادلون حولها فيتفقون ويختلفون، وقد تصل بهم خلافاتهم إلى الخصومة، فينقسمون إلى جماعات متناحرة تتبادل الطعون والاتهامات(2). أما هو فكان ما يزال يكتب الشعر العمودي ويجد فيه ذاته الشعرية. فلم يكترث لخصوماتهم، ولم يقحم نفسه فيها، بل ظل محتفظاً برأيه مستقلاً عن آرائهم.

وكانوا هم، أو أغلبهم، ينتمون إلى أحزاب سياسية سرية، ويعبرون عن أفكارهم ومواقفهم في شعر يكتبونه. أما هو فلم ينتم إلى أي حزب، أو يتحمل أية مسؤولية سياسية، ولم يكن يجد نفسه مطالباً بالتعبير عن شعوره الوطني وآرائه في أية قصيدة يكتبها، برغم وطنيته الأصيلة العميقة .(3)

وكانوا هم طلاباً في "دار المعلمين العالية" أو "كلية الحقوق" يسعون بجد، وينتظرون أيام التخرج، ليحظوا بوظيفة ذات مرتب شهري ثابت، ويستطيعوا الزواج وفتح بيت مستقل. أما هو فلم يكن يفكر بشيء من ذلك. فقد هجر عالم المدارس، وعاش حياة بوهيمية، وظل بلا عمل ثابت تقريباً، وكان أقصى ما يفكر فيه، إن فكّر، هو هذه الأحلام البرجوازية الصغيرة.

وكانوا هم رومانسيين في شعرهم، وفي نظرتهم إلى المرأة، ومثاليين في نظرتهم إلى الحياة والكون، برغم اعتناق بعضهم، أو أغلبهم، الماركسية. أما هو فكان بوهيمياً في شعره وسلوكه، وكانت نظرته إلى المرأة حسيّة غريزية خالصة، لا يرى فيها سوى جسدها، وكل شيء في هذا الجسد يذكره بشيء محسوس، بأطايب الطعام وأشهى الفواكه مثلاً. وكانوا هم يجدون المرأة إلى جوانبهم في مقاعد الدراسة الجامعية، فيغرمون بها دون أن ينالوها، ولا يملكون سوى التغزل بها، أما هو فكان يراها تخطر في شارع فتثير غرائزه، ويحظى بها في مبغى فيمارس طقوسه معها.

كان يسمّيهم "أبناء الكليّات" جاداً وهازلاً. وكانت له مآخذه عليهم، وأهمها أنهم بعيدون عن المصدر الحقيقي للإبداع الشعري، في رأيه. فهم ليسوا مثله، هم لا يخوضون بأنفسهم "معارك الحياة" ولا يسبرون "أغوار الدنيا"، بل يدفنون رؤوسهم في دواوين كبار شعراء العالم ليخرجوا منها بأشياء يبنون عليها قصائدهم. كان يعتقد أن الحياة الحقيقية هي في قاع المدينة، وليس في بطون الكتب. وكان يجد هذه الحياة نهاراً في وجوه المتعطلين والشحاذين والمنجّمين والباعة المتجولين والحشاشين والنشّالين الذين تعج بهم منطقة الميدان وأزقتها الفرعية، أما في الليل فيجدها في الحانات والمباغي وروادها وأجوائها الضبابية. وكان يعد نفسه، ويعده أصدقاؤه "فارس ليل لا يشق له غبار". ولذا أطلق على نفسه صفة "رجل الضباب" وعلى أصدقائه صفة "فرسان الضباب". ولم يبخل بهذه الصفة على فتاة أعجبته من فتيات المباغي فسمّاها "فتاة الضباب".

وبرغم أن بلند الحيدري كان أقرب الشعراء إليه لأكثر من سبب، ظل يقف على مسافة منه. وبرغم أنه وافقه على تأسيس مقهى "واق واق" وزامله في جماعة "الوقت الضائع"، لم ينهمك معه في شؤونهما وشجونهما. فهو لم يكن يحمل مشروع "الوقت الضائع" على محمل الجد، ولم تكن فرديّته لتسمح له بالانخراط في جماعة، ولذا لم يكن له في هذا المشروع، ولا على هامشه أي نشاط ملموس. وقد كان يتجنب الحديث عنه. وإذا سئل، وقد سألته أنا مرات، أوجز في الجواب، وعمّى، وغيّر الموضوع. وهو لم يشر إليه، حينما كتب عن ذكرياته، سوى مرة واحدة. وكانت الإشارة تخص مقهى "واق واق" حصراً، ولعله لم يشر إلى هذا المقهى إلا ليقول إنه هو الذي أطلق عليه هذا الاسم. ولو كان الأمر على خلاف ما ذهبنا إليه لكتب عن جماعة "الوقت الضائع" ومقهاها في ما كتب عن ذكرياته، ولتحدث عنها باعتزاز، مثلما يفعل حين يتحدث عن أي موضوع يخصه أو له دور فيه.

لقد كان له عالمه الخاص المختلف عن عوالم الآخرين أياً كانوا، وبمن فيهم صديقاه الأثيران المحامي عبد المجيد الونداوي والروائي غائب طعمة فرمان. ولم يكن لينضم إلى جماعة فينسب إليها، أو حزب فيحسب عليه. كان يعيش داخل نفسه أكثر مما يعيش خارجها. بل هو ما كان ليعيش خارج نفسه إلا خضوعاً لشرطه الإنساني، في حين كان دائم التحديق في أعماقه، يفكر بصمت ويقلب الأفكار على وجوهها، أو يحلم أحلام يقظة في امرأة أعجبته أو شيء أقلقه.

لذلك ظل مختلفاً عن زملائه، وحافظ على استقلاله الشعري والفكري، وكتب نمطه الفريد حتى النهاية. وأغلب ظننا أنهم لم يكونوا يوافقونه على آرائه، وربما استخفوا بها، وشككوا في عمق ثقافته وسعة إطلاعه كما كان بعضنا يفعل حين تعرفنا عليه وحاورناه في أواخر ستينيات القرن الماضي. ولكنه لم يعبأ بهم، أو بنا، وشق طريقه في الشعر بعصامية فريدة لا تذكرنا بأحد سوى الشاعر محمد الماغوط.

وخلاصة القول: إن حسين مردان كان واحداً من أولئك الشعراء، ولكنه كان مختلفاً عنهم في كل شيء، ومع ذلك كان يمثل روح جيله بعمق وعنف، فاتخذ لنفسه طريقاً غير طريقهم، وإن التقى بهم في بعض مفارقها ومنعطفاتها. وقد شق طريقه بنفسه، فهو عظيم الثقة بها، ولا يكاد يطمئن إلى سواها. كان يشعر بأنه "عبقري" و"عظيم" و"مارد جبار"، ولا يتحفظ في التصريح بذلك قولاً وكتابة، سواء أكان جاداً في ما يصرح به أم مشاكساً، ومرة قال لي في مقابلة صحفية أجريتها معه في أواخر الستينيات "أنا ديكتاتور الأدب"، فكيف يكون كأي واحد منهم؟

عاش حسين مردان نحواً من خمسة وأربعين عاماً، بلغ عمره الأدبي منها نحواً من خمسة وعشرين عاماً، كتب خلالها شعراً عمودياً، وشعراً حراً تفعيلياً، وشعراً حراً بلا وزن ولا قافية، وقصائد نثرية، ومقالات نقدية، ومقالات أدبية عامة. وبلغ عدد مؤلفاته المطبوعة خمسة عشر مؤلفاً، بعضها صدر في كتب، وأغلبها صدر في كراسات، وله كتابات شعرية ومقالات أخرى لم تنشر في كتاب مستقل باسمه. وما يهمنا هنا هو حسين مردان الشاعر، وليس الناقد أو كاتب المقالة. ويبلغ عدد أعماله الشعرية المطبوعة اثني عشر عملاً بين ديوان وكراس هي: قصائد عارية (1949)، واللحن الأسود (1950)، ورجل الضباب (1950)، وصور مرعبة (1951)، وعزيزتي فلانة (1952)، والربيع والجوع (1953)، ونشيد الإنشاد (1955)، والعالم تنور (؟)، والأرجوحة هادئة الحبال (1958)، وهلاهل نحو الشمس (1959)، وأغصان الحديد (1961)، وطوار خاص (1967). (4) وله ديوان آخر لا يعرف مصيره حتى الآن هو ديوان "فولاذ وعصافير وامرأة"(5) ونحو عشرين قصيدة من الشعر الحر الخالي من الوزن والقافية، وعشر من الشعر الحر التفعيلي، نشرها كلها في مجلة "ألف باء" وأعيد نشرها بعد وفاته بسنوات في كتاب "من يفرك الصدأ"(6) هذا فضلاً عن قصائد نثر لم يحصر عددها نشرت بوصفها مقالات صحفية في المجلة نفسها، وأعيد نشر بعضها في كتابه "الأزهار تورق داخل العاصفة" وبعضها نشر في كتاب "من يفرك الصدأ" الذي مر ذكره، و هذه القصائد هي، فقط، ما سنتحدث عنه الآن، وندع بقية شعره لدراسة شاملة حوله .(7)

قصائده النثرية:

برغم أن من المألوف، في الكتابات العربية النقدية وغير النقدية، الخلط بين الشعر الحر Free Verse وقصيدة النثر Prose Poem، فإننا نفضل الفصل بين هذين الجنسين من الكتابة الشعرية. ذلك أن لكل منهما تأريخه الخاص وشكله المميز وخصائصه الفنية. وشاعرنا حسين مردان كتب بعض شعره في هذين الشكلين، فأطلق على ما كتبه في الشكل الأول اسم "النثر المركز" ولم يعده شعراً، وكتب في الشكل الثاني وفي ظنه أنه يكتب مقالة أدبية!

في أوائل عام 1969 عرضت مجلة "ألف باء" الأسبوعية على حسين مردان أن يكتب مادة أدبية لكل عدد من أعدادها، فوافق وراح يزودها بمقالات وقصائد تنشرها في المساحة المخصصة له من صفحاتها.

ما يهمنا هنا هو المقالات، وهي متنوعة وكثيرة، منها ما يتناول ذكرياته عن شبابه وأسفاره ومحاكماته، ومنها ما يتناول قضايا أدبية وفنية، غير أن بعضها قطع أدبية خالصة أطلق عليها الدكتور علي جواد الطاهر تسمية "المقالة المبدعة". (8)

وعندي أن ما يسميه الطاهر "مقالة مبدعة" ويعده "مقالة على أية حال" ما هو إلا "قصيدة نثر" تشبه في شكلها العام قصائد النثر التي كتبها بودلير وسمّاها Poem en Prose ثم نشرها في كتابه المعروف سأم باريس Le Spleen de Paris، وهذه واحدة مما كتب حسين من هذه القصائد:

"كان الصبح يعدو إلى المغيب، ولم أكن فرحاً أو مهموماً.. هناك قصيدة ومقال وقصة .. وابتسمت، أسراب الموظفين والطلبة يركضون نحو بطن الحوت الأحمر. لقد ذهب العيد. وسرت على حافة الشارع. سكّين وحبل رمادي. وفي الأفق غيمة سمراء على شكل وعل. لقد بدأت الغابة تتثاءب في أعماقي. وحوش ومحاربون وببغاء على غصن طويل، والليل ينتظر وراء قلبي، الليل ينتظرني. ليلي الخاص. ومرت امرأة من العهد القديم .. والهلال الأسود فوق الحاجب..!

وكان تفاح وليمون، هذه المخلوقة الطيبة، إنها تهرول نحو السوق. في زمن ما بعت سروالي لكي أسكر بثمنه. كان معي غائب طعمة فرمان وعبد المجيد الوناوي .. هكذا شربنا البنطلون في كازينو بلقيس .. إيه .. والتف الحبل الرمادي على قدمي .. من أي مكان جئت؟ إن جبيني يلمس أرجل الوعل .. الوعل الموجود في الغيمة السوداء ... إني لعلى مجد كبير! وأقبل عامل صغير .. إنه يلهث .. لقد تأخر قليلاً. هو يحمل وجه شقيقي .. حبي لك يا عبّاس .. ومضيت أزحف بين أحلامي .. بدلتي الرصاصية في استامبول وصورة وجهي داخل إطار في موسكو وأنا هنا في حي البلديات ومعي نصف أوقية من الرز وعلبة سكاير .. ها .. والصبح يركض نحو المغيب .. والقصيدة لم تكتمل بعد .. لو أعرف من هذا الذي يمشي على السكّين؟ الموجة تسير والبحر في مكانه .. لو غسلت القميص لذهبت لرؤية أصدقائي في مؤسسة الصحافة! ولكنها ملعونة تلك الطفلة المسؤولة عن نظافة ملابسي. ما فائدة العتاب.

ووصلت الرابية. كان عمود التلفون يغنّي .. أغنية بلا كلمات تسافر إلى إنسان مجهول. وفي الجانب الأيسر مسحاة تنقل التراب إلى مؤخرة سيارة. قال الفلاح إن أرض حديقتي منخفضة. ووقفت أنظر إلى الشتاء في السماء. لقد تحول الوعل إلى سفينة وبقايا قرية خالية. وتقلص ظلي من الأعلى. أنا ذرة رمل في قاع هاوية .. وبعد لحظة سيختفي المسرح والممثل. فالليل ينتظرني. والزمن يحملق بي ويطرح أسماله على عيني .. يا لي من أعمى يتحدث عن الألوان. بالأمس رأيت مؤلفات بلزاك في العربة! عربة الكتب البائرة! مهزلة عمرها عشرة آلاف سنة. وانقلب الطريق إلى كأس من السمّ. ليتني أستطيع أن أذبح التأريخ وكل اللغات. في القمر محطة، وعند خط الاستواء هندي يلاعب أفعى. وفي مجلس النواب التشيلي يجلس الشاعر بابلو نيرودا .. عندما التقيت به في الكرملين كان ساهم العينين .. كنا قافلة واحدة، المرأة القديمة والعامل الصغير والقمر والمسحاة وأنا وبابلو والأفعى الهندية .. واقتربت من البيت .. من قبري المؤقت .. التين والصبار وعلى السطح زقزقة عصفور .. من يسحب الماء من البئر؟ ألف حنفية مقفلة في صدري. فيا إلهي متى تعود الكف التي تفرك الصدأ ... ودخلت .. الطيف يملأ الكرسي والشذا على الستائر .. والخلاص فأرة لا تعرف درب المصيدة .. حفنة من السمّاق هي تسليتي. وتكوّمت بجانب النافذة صرّة من الهواء ترقص في الصالون." (انتهت)

لقد كتب مردان قصائده النثرية في موضوعات مستمدة من حياته اليومية، وتجاربه الخاصة، وذكرياته، وأحلامه، ولم يستلهمها من مصادر خارجة عنه وعن محيطه، وكان نثره "نثر الحياة اليومية" بامتياز، على أحسن ما أراده بودلير ولم يبلغه، في رأينا. فحسين لم يدفن رأسه في الكتب، كما فعل آخرون حسب قوله، بل عاش الحياة وتذوقها بكل حواسه، ونظر إلى الأشياء بعيني طفل فرأى فيها ما لا نراه. وما من شيء إلا وكان يرى فيه ما يفاجئه ويدهشه ويحيره ويقلقه، حتى أكثر الأشياء ألفة وشيوعاً. وقد كان ذا أحلام يقظة لا تنقطع إلا ليغوص في عالم باطني مكتظ بالأعاجيب. وهذا ما جعل مقالاته "بل قل قصائده أحفل بمادة الشعر من قصائد بودلير النثرية المتألقة، وما قصيدة" من يفرك الصدأ" إلا مثال.

وخلاصة القول: إن قصائد حسين مردان النثرية إبداع خاص، من طراز خاص، لم ينسج على منوال مثال سابق عليه، بل هو سابق فيه. فهو لم يقلد أحداً في كتابة قصائده هذه، ولم يتصنع فيها أو يفتعل، بل كتبها بتلقائية مدهشة. وهو لم يطلع على ما اطلع عليه سركون بولص أو غيره، مثلاً، بل كتب أنموذجه الخاص المتفرد والمتميز بين النماذج، وهذا الأنموذج لم يتميز بصياغته الفنية فحسب، بل كذلك بنكهته المحلية الخاصة (العراقية). وهو لم يقرأ كتاب سوزان برنار عن قصيدة النثر ويستلهم منه ما يستلهم. وأغلب ظننا أنه لم يهتم في حينه بقراءة أنسي الحاج، أو أدونيس، أو سواهما من كتاب قصيدة النثر العرب، ولو فعل، وهذا احتمال لا يسعنا نفيه، لما اكترث لما يكتبون، ولاستخفّ به، وما ذلك إلا لاعتقاده بأنهم ممن يدفنون رؤوسهم في كتب الشعراء العالميين المشهورين ليستمدوا منها (أشياء) يبنون عليها قصائدهم، كما قال يوماً عن السياب والبياتي وكاظم جواد .(9) وهذا كله مما يجعلنا نقول: إذا كان هناك من يبحث عن أب شرعي لقصيدة النثر العراقية، كما يحب بعضهم أن يخصص ويبحث، فإن هذا الأب هو حسين مردان، دون سواه.

ونحسب أن الضرورة والتجربة هما اللتان أوصلتا مردان إلى الشكل الذي كتب به قصائده النثرية، ولما لمس نجاحه فيه، وثناء بعض أصدقائه عليه، ومنهم زملاؤه في مجلة "ألف باء"، تمسك به وراح يطوره. فهو لم يكن صاحب مشروع مخطط له كمشروع بودلير، بل كان يريد كتابة "مقالة" التزم بكتابتها لمجلة ودفعها للنشر في وقت محدد. غير أنه لم يكن من المحترفين في كتابة المقالات الصحفية برغم عمله الطويل في الصحافة، وما كان في وسعه أن يفي بالتزامه هذا من دون مشقة، فقاده ضغط الالتزام وتشجيع الزملاء والأصدقاء إلى هذا اللون من الكتابة، وراح يطوره بالتجربة والمران شيئاً فشيئاً. فقد بدأ فيه بداية ضائعة بين المقالة والقصيدة، حتى نضج الشكل عنده واستوى على ما صار إليه، وتوفي من دون أن يفكر (أو يخبره أحد) بأن ما يكتبه قصائد نثر، وليس مجرد مقالات صحفية مكتوبة بلغة أدبية.

ويكاد ما كتبه من هذه القصائد يشكل مجموعة كاملة، ولكن بها حاجة إلى وقفة نقدية متأنية تغربلها وتفرزها عن مقالاته الاعتيادية، أو تلك الضائعة بين المقالة والقصيدة، قبل دراستها ونشرها في كتاب مستقل. ومن أمثلتها: مناثر كربلاء وقمة أفريست، والرخ والحليب الأسود، والعصفور والفواكه الاصطناعية، والسمك يفقد طعمه الدموي، والقطة تقفز في الفضاء، والشاعر والثغور المالحة، ودوران الروح، وغيرها .(10)

* شاعر من العراق

الهوامش:

(1) كل ما ورد عن سيرة حسين مردان في هذه الدراسة مستقى من المصادر الآتية: حسين مردان / الأزهار تورق داخل العاصفة / وزارة الإعلام ـ بغداد / 1972 د. علي جواد الطاهر/ من يفرك الصدأ / دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد /1988 يوسف عبد المسيح ثروة / حسين مردان من ألم المخاض إلى الأزهار تورق داخل العاصفة / مجلة الكلمة ـ بغداد /العدد 6 السنة 4 / تشرين الثاني 1972 حسين مردان/مقالات في النقد الأدبي/المطبعة العربية ـ بغداد/ 1955

وكل عبارة مقوسة ترد في الحديث عن سيرة الشاعر هي من مقولاته.

(2) ومن ذلك الخصومة بين الشاعرين بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي

(3) حدث تحول في موقفه الشعري عام 1952، في الأرجح، وذلك عندما حكم عليه بالسجن مدة سنة من دون أن يكون له أي نشاط سياسي، أو أي انتماء حزبي، فتبنى قضايا الشعب حتى النهاية.

(4) هناك ما يحملنا على الظن بأن قصيدة (رجل الضباب) من أنتاج عام 1952 وليس عام 1950 كما ذكر الشاعر عند إعادة نشرها في ديوان "أغصان الحديد" عام 1958. أما كراس "العالم تنور" فلم نستطع التثبت من تاريخ نشره ولكن من المحتمل أنه نشره عام 1954، أو عام 1956

(5) ذكر هذا الديوان ونوّه عن وجوده في هامش ضمن الملف الذي أعدته مجلة "الأديب المعاصر" عن الشاعر بعد وفاته. راجع: الأديب المعاصر / العدد 4/ السنة 1/ آذار 1973 / ص 201

(6) د. علي جواد الطاهر / من يفرك الصدأ / مصدر سابق / راجع بشأنه الهامش رقم(1)

(7) في الواقع أننا قد أنجزنا هذه الدراسة، وهذا المقال جزء منها.

(8) د. علي جواد الطاهر / مصدر سابق / ص 24

(9) حسين مردان / مقالات في النقد الأدبي / مصدر سابق / ص 68

(10) نشرت هذه كلها في كتابه: الأزهار تورق داخل العاصفة، وهناك غيرها في كتاب د. علي جواد الطاهر: من يفرك الصدأ. وقد بلغ مجموع ما نشر في الكتابين نحو 157 مقالة، مئة منها في الكتاب الأول وسبع وخمسون في الكتاب الثاني.

أنت حي اذن أنت تحب:

محاولة ليست أخيرة للقبض على معنى الحب

زياد خداش*

■ أطارده في الطرق والحدائق والمدارس وفي القرى البعيدة وعلى اطراف المخيمات، أحاصره في الزوايا أحيانا فيسدد عيونه الساخرة الناعمة في عيني، كأنه يقول لي: من انت حتى تحاول فهمي؟! وبسرعة الرصاصة الأخيرة في مسدس الفدائي الاخير يهرب مني دائما، فأرتاح قليلا ملتقطا أنفاسي تحت نبتة ياسمين مبتسمة، ولا أعر